مقالة

الأضرار التي لحقت التراث الثقافي العراقي جراء الحروب والإرهاب والإهمال

د . صالح عاصي هيجل خليل الجميلي

الكلمات المفتاحية: الاضرار. التراث. الحرب. الارهاب

الملخص:

التراث، هو مجموع ما خلفته قرائح الأقدمين وصفوة الأسلاف من فكر وعلم وفن ونمط عيش وفنون حضارة مما يمكن لجيلها الحالي الإفادة منه، والاستعانة به على حل ما يواجه من المشكلات والتحديات، أو تعريفه بأنه كل ما أفرزه الماضي من إفرازات، ضارة ونافعة، سامة وسليمة، لا يزال لها أثرها الفعال في مسلكنا ومعتقداتنا وأسلوب معيشتنا ونظرتنا إلى الحياة، منها ما يجدر بنا التمسك به وتنميته، ومنها ما ينبغي علينا محاولة استئصاله، أو الحد قدر الإمكان من نطاق سلبياته.

ورغم أن تراث كل دولة أو قبيلة هو تراث إنساني يملكه البشر في كل زمان ومكان إلا أن معايشة مفردات التراث في الواقع المعيشي ييسر الدخول إلى منجم التراث والتعامل مع كنوزه، وما دامت معايشة مفردات التراث في الواقع المعاش تيسر الدخول إلى منجم التراث، فلنا أن ندرك أن هذه المعايشة لا تتأتى إلا لمن هو على نفس عقيدة أصحاب التراث، ذلك أن المفردات المكتسبة من العقائد، هي أهم مكونات التراث.

والتراث هو تجارب السلف التي تركوها في المتاحف أو المقابر أو المنشآت أو المخطوطات وما زال لها تأثيرها في عصرنا الحاضر، وسنركز في مقالتنا عن الاضار التي لحقت بهذا التراث.

الاضرار التي لحقت التراث الثقافي العراقي جراء الحروب والارهاب والاهمال

تشتق كلمة التراث من الفعل ورث يرث ميراثا اي انتقل اليه ماكان لابويه من قبله فصار ميراثا له وقيل الورث والميراث في المال والارث في الحسب وورث في ماله :ادخل فيه من ليس من اهل الوراثة وتوارثناه :ورثه بعضنا بعضا والتراث :مايخلفه الرجل لورثته واورثه

الشيء :اعقبه اياه ومن الجدير بالذكر ان الكلمة قد وردت في القران الكريم في العديد من السور نحو "واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا"(الاحزاب :27) و"وورث سليمان داود وقال ياايها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين"(النمل :16)

وتعطي كلمة التراث من حيث الاصطلاح بعدا للنتاج الانساني ذي القيمة والطابع الفني والادبي والعلمي والتاريخي في الماضي والحاضر فهو شاهد على تجارب الانسان وطموحاته ومفهوم التراث يضم التراث المادي المنقول وغير المنقول والتراث غير المادي الشفهي المتمثل بعادات وتقاليد الشعوب والامم

والتراث على انواع فهو اما تراثا طبيعيا متمثلا بالمعالم والمواقع الطبيعية وهي من هبة الله تعالى وصنعته ولها قيمة جمالية وعلمية عالية .واما يكون تراثا ثقافيا مثل المواقع الاثارية والمتاحف والمكتبات القديمة اما التراث غير المادي (الشفهي)فهو الذي يعبر عن عادات وتقاليد وممارسات خاصة بكل بلد او مجموعة بشرية تميزها عن البلدان والمجموعات الاخرى يعد التراث ذاكرة الامة ومامر عليها من حوادث على مر التاريخ والتي تأثرت بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها من الظروف الاخرى التي كونت بمجموعها الحضارة الانسانية وشكلت صورة الماضي الذي تقتبس منه الجيل الحاضر ويعتز به فهو الثقافة المتناقلة بين الاجيال بما تتضمنه من افكار وفلسفات وعادات وتقاليد ورؤى وجماليات واذواق .

يختلف التراث عن التاريخ على الرغم من انكلا منهما متعلق بالماضي فاذا كان التاريخ هو الماضي في بعده التطوري فان التراث هو الماضي في بعده التطوري موصولا بالحاضر ومتداخلا معه ومتشابكا به ويشكل التاريخ حوار الماضي مع الحاضر عبر التراث حوارا يكون فيه زمام المبادرة للحاضر الذي يتشابك فيه الماضي بالمستقبل .

ان مفهوم التراث كما نستخدمه اليوم مأخوذ من الفكر الغربي ويقابل كلمة تراث في اللغة الانكليزية مصطلح ترايديسون (Tradition)ويستعمل الغربيون ذلك المصطلح لوصف كل ماهو موروث في مجتمع معين عن الاجيال الماضية كالعادات والتقاليد والاخلاق والاداب فهو لايشمل المدونات والاثار المادية فحسب بل يمتد ليشمل المرويات التي وصلتنا عن طريق السماع ايضا .اما في اللغة الفرنسية فهو يقابل مصطلح (Legacy) الذي اصبح موازيا لمفهوم الثقافة ويمكن من كل ما سبق استخلاص تعريف للتراث بانة مصطلح يمثل قيم من انواع متعددة منها قيم تراثية وتاريخية وانسانية ودينية ترتبط بحياة الانسان ومعطياته المختلفة

وتشكل ارتباط الماضي بالحضارة الذي يشكل بمجموعه الحضارة للمجتمعات المتعددة .

ويعتبر العراق من اغنى الدول في وجود تراث غني وعظيم ذو ابعاد تاريخية وحضارية كبيرة وقد تمثل ذلك بمختلف اوجه التراث المتباينة ومنها البنايات التراثية التي انتشرت في مختلف مدن العراق وهو تراث عمراني من القصور والبيوتات القديمة والمباني المهمة التي امتزجت فيها العناصر العمارية المختلفة والتي هي نتاج الحقب التي مر فيها العراق وتحتل اهمية حيوية في المدن العراقية وتشكل هوية خاصة بها وعامل مهم من عوامل الجذب السياحي ومنها المناطق القديمة في بغداد ذات التصاميم المعمارية التاريخية التي تعود الى العهدين العثماني والبريطاني كالكاظمية والاعظمية وحيدر خانة وباب الشيخ وشارع الرشيد وان اغلب تلك البنايات قد طالها الاهمال حتى اصبحت مهددة بالانقراض من دون وجود عمليات منظمة لصيانتها وادامتها والحفاظ عليها وقد تعرض بعضها للهدم والتخريب والبيع حتى كانت عرضة للنهب والاستباحة والاستغلال بان تهدم وتبى مكانها مباني حديثة في وقت تحتاج هي فيه الى التاهيل والصيانة والترميم .

ومن الاوجه التراثية المهمة الاخرى هي المكتبات والتي تعد المقياس الحقيقي والدقيق لرقي الشعوب والامم وان انتشارها وسهولة ارتيادها دليل على ثقافة الشعب وحبه للعلم وقد زخر التراث العربي بعدد كبير من المكتبات واقدم المكتبات في العالم كانت في بلاد الرافدين مثل مكتبة نيبور ومكتبة اشور بانيبال في نينوى ثم ظهر في العصر الاسلامي اعظم صرح ثقافي الا وهو بيت الحكمة الذي شكل رائعة من روائع المكتبات من حيث الادارة والتنظيم ومكتبة سابور بن اردشير التي انشأها في بغداد عام (381هـ/991م)والمدارس النظامية التي ارفقت بها المكتبات ومكتبة المدرسة المستنصرية التي تم انشاؤها في (640/623هـ)(1242/1226م) واستمرت نحو قرنين من الزمن والتي تعتمد اغلب المكتبات الان على قواعدها واسسها في ادارة المكتبات .

واسست المكتبات في بغداد منذ عهد هارون الرشيد (193/170هـ)وازدهرت في عهد المأمون (218/198)حتى كانت مكتبة بغداد تحوي عصارة فكر المسلمين طيلة قرون طويلة فضلا عن الترجمات للعلوم اليونانية والفارسية والهندية وحينما احتل المغول بغداد سنة(656هجرية) قاموا بتدمير هذا التراث الهائل ربما لانهم شعروا بالفجوة الكبيرة بين الحضارة الاسلامية وبينهم.

وفي العصر الحديث وجدت المكتبات بكثرة في مختلف المحافظات العراقية ومنها المكتبة المركزية في جامعة بغداد التي تعد من اهم المكتبات المشهورة والمخصصة للرواد من طلبة

الجامعات وتأسست سنة 1959على اثر قرار تأسيس جامعة بغداد سنة 1957وفي عام 1990 تم تقسيم المكتبة اداريا الى قسمين واحدة في الجادرية والثانية في الوزيرية .

وبعد عام 2003 وحدوث الحرب الامريكية وسقوط النظام السياسي الحاكم في العراق تعرضت المكتبة في موقع الوزيرية الى الحرق والتدمير ودمرت فيها للاسف مئات الوثائق والكتب النادرة التي لاتتوفر منها نسخ في اي مكتبة اخرى بعد الفوضى العارمة التي حلت في بلدنا جراء الاحداث السياسية انذاك فبعد الغزو الامريكي تعرضت العديد من الصروح العلمية والثقافية ممثلة بالمكتبات العامرة بشتى انواع المعارف والعلوم الى الدمار والتخريب من جهات مختلفة داخلية وخارجية منها شارع المتنبي الذي يعد تجمعا للمثقفين والقراء من جميع المحافظات العراقية اذ تعرض الى تفجيرات ارهابية ادت الى مقتل المئات من اصحاب المكتبات والمولعين بالقراءة اضافة الى تدمير المكتبات فيه بشكل كامل امثال المكتبة العصرية والتي تعد من اقدم المكتبات فيه حيث اسست في عام 1908وكذلك تدمير مقهى (الشابندر)وهو احد معالم الشارع التراثية العريقة والجميلة .

وظهرت التيارات التكفيرية الارهابية ممثلة في تنظيم داعش الارهابي وسيطرت على مناطق واسعة من العراق في ظل غياب الدولة القوية والقوانين وسيادة المحاصصة الطائفية وكان من ضمن المناطق التي سيطر عليها التنظيم هي مدينة الموصل العريقة بتراثها الحضاري والثرية بمكتباتها وشواهدها التاريخية الاثارية واقدم التنظيم الارهابي اثناء سيطرته تلك على جريمة مروعة باقدامه على حرق المكتبة المركزية العامة الموجودة في الجانب الايسر من مدينة الموصل والتي تعد من اقدم المكتبات وتحتوي على مكتبات شخصية لعلماء ومفكرين تبرعوا بكتبهم الى المكتبة وهي نفائس لاتقدر بثمن وبعضها يعود الى العهد العثماني من كتب وسجلات ووثائق وتقدر عدد كتبها على اكثر من مائة الف كتاب ولما يزيد عن ثمانية الاف من النوادر والمخطوطات القديمة وجرى تدميرها بعبوات متفجرة في شباط من سنة 2015

وكانت المكتبة قد انشئت منذ تاسيس الدولة العراقية سنة 1921وحوت كتب كتبت باللغة السريانية كانت قد طبعت في اول دار للطباعة في العراق ابان القرن التاسع عشر فضلا عن مجموعات نادرة من الصحف القديمة ومجاميع كتب باللغة الانكليزية وكانت تستقبل اجيالا من المثقفين والطلبة في بنايتها الجميلة ,وحوت ايضا على بعض التحف القديمة كالاسطرلابات والرمال الزجاجية وكانت تضم خزائن شخصية لاكثر من مائة من الاسر البارزة في الموصل وفيها قسم لصيانة الكتب وتجليدها .

ومن الجدير بالذكر ان المكتبة تعرضت الى عمليات سلب ونهب عقب سقوط النظام السابق

واستبيحت وسرقت بعض محتوياتها يوم 2003/4/10ولكن اهل المدينة المخلصون استطاعوا حمايتها بل شراء النسخ التي نهبت وارجاعها الى المكتبة ومعرفتها من خلال ختم المكتبة الخاص ليأتي بعدها تنظيم داعش ويدمرها بالكامل بل ولايكتفي بذلك بل قام بتفتيش البيوت بحثا عن المكتبات الخاصة واحراقها لانها تتعارض مع مايروج له التنظيم الارهابي من فكر ظلامي متطرف وبذلك خسرت المدينة بل خسر العراق باكمله تراثا ثقافيا نادرا لايمكن تعويضه

ومن الضروري ان نوصي بضرورة الحفاظ على التراث العراقي بكافة انواعه من مباني ومكتبات ومراقد ومزارات واستحداث هيئة او منظمة حكومية تعمل على ذلك وايقاف الاهمال المتعمد وزحف البناء الحديث على المباني التراثية وتعرضها للهدم ويكفي ان نضرب مثلا على ذلك جامع الخاصكي الذي يعتبر من اقدم المساجد في بغداد والذي شيد سنة 1683ميلادية وقد تحولت بوابته الاثرية الى مكب للنفايات وكذلك الخانات القديمة والاسواق وفصور العائلة الملكية والتي ينبغي الاهتمام بها والحفاظ عليها بتشكيل فرق ماهرة لصيانتها دون دثر معالمها الحقيقية لاسيما انها يمكن ان تكون موردا مهما من موارد الدخل القومي باعتبار كونها معالم سياحية جاذبة لمختلف الاطياف والاديان والقوميات .

المصادر المعتمدة

1-القران الكريم

2-جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت:630ه) تهذيب لسان العرب ،هذبه بعناية :المكتب الثقافي لتحقيق الكتب تحت اشراف عبد احمد علي مهنا (دار الكتب العلمية ،بيروت :1993)

3-محمد بن بكر بن عبد القادر الرازي (666ه)مختار الصحاح (دار الرسالة للطباعة ،الكويت:1967)

4-احمد محمد علي الفيومي المقري (ت:700ه)المصباح المنير (مكتبة لبنان ،بيروت :1990)

5-احمد عبد الحميد المختار،معجم اللغة العربية المعاصر (عالم الكتب ،القاهرة :2008)

6-عماد الدين خليل ،حول مصطلح التراث (دار ثقي للنشر ،الرياض :2000)

7-هاشم يحي الملاح ،مفهوم التراث في الفهم العربي واشكالياته التراث والنهضة (محاضرات الموسم الثقافي لدائرة التراث الاسلامي ،المجمع العلمي العراقي :1999)

8-عبد المجيد دياب ،تحقيق التراث العربي منهجه وتطوره (المركز العربي للصحافة ،القاهرة :1983)

9-البنايات التراثية في بغداد (1921-1958) ،علاء حسين جاسم اللامي (اطروحة دكتوراه قدمت الى قسم الاثار،جامعة بغداد:2016

10-مقالات منشورة في الشبكة العنكبوتية

Article

Damage to the Iraqi cultural heritage as a result of wars, terrorism and neglect

Dr.Saleh Assi Heigl Khalil Al-Jumaili

Keywords: damage. heritage. the war. Terror

Summary:

Heritage is the sum of the thought, science, art, lifestyle and arts of civilization left by the ancients and the elite of the ancestors, which the current generation can benefit from, and use it to solve the problems and challenges it faces, or define it as all the secretions produced by the past, harmful and beneficial, toxic and healthy. It still has an effective impact on our behavior, beliefs, way of living and our outlook on life, some of which we should adhere to and develop, and some that we should try to eradicate, or limit as much as possible the scope of its negatives.

Although the heritage of every country or tribe is a human heritage owned by people in every time and place, experiencing the vocabulary of heritage in the living reality facilitates entry into the heritage mine and dealing with its treasures, and as long as experiencing the vocabulary of heritage in the living reality facilitates entry into the heritage mine, we have to realize This coexistence is only possible for those who are of the same belief as the owners of the heritage, because the vocabulary acquired from the beliefs is the most important component of the heritage.

Heritage is the experiences of the ancestors that they left in museums, cemeteries, installations or manuscripts, and they still have their impact in our present time, and we will focus in our article on the damage caused to this heritage.